إشكاليّة المصطلح في الدّراسات النّقديّة
العربية المعاصرة – الحجاج أنموذجا -

أمينة تجاني. جامعة بسكرة

ملخص:

تهدف هذه الدّراسة إلى تسليط الضوء على إشكاليّة المصطلح النّقدي في الدّراسات العربيّة الحديثة والمعاصرة، متّخذة من الحجاج نموذجا لها، سعيا إلى رصد تجليات هذا المصطلح في الخطاب النقدي العربي: تنظيرا وتطبيقا وتأصيلا ، في محاولة للإحاطة به وبكل ما يتعلق به من خلال حصر جميع الدّراسات التي تناولته في العالم العربي، وتحديدا طرق ترجمته والاختلافات الحادثة بينها، وكيفيّة تطبيق النّقاد العرب لهذا المصطلح في كتاباتهم وممارساتهم النّقديّة، بمعنى إلقاء نظرة عامّة لمظاهر تجليات نظريّة الحجاج على النّصوص العربيّة، وذلك من أجل إبراز هذه النّظريّة وإعطاء صورة واضحة ومتكاملة عنها، وجعلها موثّقة وميسّرة وسهلة التّناول .

مقدّمة :

يتناول موضوع البحث إشكالية المصطلح النقدي في الدّراسات العربيّة المعاصرة، ويتخذ من الحجاج أنموذجا للدّراسة، في محاولة للإحاطة والشّمول بهذا المصطلح الأجنبي الوافد إلينا، فهو بمثابة دراسة مسحيّة للكتب والبحوث والمقالات التي تناولته بالدّراسة ؛ سواء كانت تأصيليّة تربط بين المصطلح الجديد وأصوله في الموروث النقدي والبلاغي العربي، أم كانت تنظيريّة توضّح مفهومه وتقنياته ومرجعيّاته الفكريّة المنبثق عنها، أم كانت تطبيقيّة تفتح المجال إلى ممارسته في تحليل النّصوص ونقدها.

وذلك للرّبط بين النظر والتّطبيق والتّراث النّقدي العربي القديم من أجل إزالة التّفكك الحاصل بينهم، وردم الهوّة التي لا تفتأ تتّسع أكثر وأكثر، وتقريب المسافات للوصول بالقارئ والطّالب إلى مستوى أعمق من الفهم، وقدرة أكثر على التطبيق والممارسة تقلل من الأزمة التي يعانيها وتصدّه عن البحث. هذا من جهة ومن جهة أخرى لتتبع الجديد فيما يخص المصطلح النّقدي وتفعيله لمسايرة حركيّة الواقع العربي بكل تجليّاته التفاعليّة من خلال استعراض العيّنات الخطابيّة المختلفة .

إنّ الحجاج من المصطلحات النقديّة الحديثة التي تجاوزت النّظرة الجماليّة للنص الأدبي التي "تفترض أنّ العلاقات الدّلاليّة بين عناصر الخطاب تقوم على الإتقان الدّلالي التّام، إلى توسيع دائرة الاهتمام بسياق النّص وآفاق الخطاب"[1] ، محاولة الكشف عن البعد الوظائفي للغة المشكلة للنص من خلال تأثيرها على المتلقي، لهذا فهي تركز على الوظيفة الإقناعيّة للوحدات اللغوية والأساليب البلاغية التي" تتوافر على خاصية التحول لأداء أغراض تواصليّة ولإنجاز مقاصد حجاجيّة ولإفادة أبعاد تداوليّة "[2] .

والمتتبّع للحجاج يلاحظ أنّه لا يعدّ نقلة نوعيّة في مجال الدّراسات النّقديّة الحديثة، بل يمثل عودة للبلاغة القديمة بشكل جديد، فهو بلاغة جديدة كما يطلق عليه . وهذا ما دفعني للبحث عن تأصيل له في الموروث النّقدي العربي،

بقصد إمكانيّة ربط المصطلح الحديث مع مدلولاته في التراث العربي القديم ، بهدف تعميق وعينا بالتراث والاستفادة من الدّراسات المعاصرة .

ولتوضيح النّهج الذي ستخطه الدّراسة حدّدت الكلمات المفتاحيّة التّالية : إشكاليّة المصطلح، الحجاج في العالم العربي، علاقة الحجاج بالموروث العربي، تطبيقات الحجاج في الدّراسات النّقديّة العربيّة .

1- إشكاليّة المصطلح:

إنّ الدّراسات النّقديّة العربيّة المعاصرة تنهل من معين غربي لا ينضب، لهذا فهي تتخبّط في أزمة اصطلاحيّة ليس لها أوّل من آخر مردّها إلى التّرجمة، وهذه الأخيرة هي مربط الفرس ومدار العمل؛ إذ تختلف ترجمة المصطلحات الأجنبيّة الوافدة إلينا من باحث إلى آخر بحسب فكره وثقافته، وأدواته التّعبيريّة والمنهج الذي اتّبعه في الدّراسة، هذا من جهة ومن جهة أخرى حسب فهمه للمصطلح ومرجعيّته الفكريّة، وطريقة الترجمة ؛ أحرفيّة هي أم أنّها بالمعنى، أهي مأخوذة عن الأصل الأجنبي أم عن المترجمين.

كل هذه الأسباب ساهمت في تشعّب إشكاليّة المصطلح النّقدي واستمرارها إلى اليوم دون الوصول إلى حل جذري يعالج المشكلة ويساعد الباحث والقارئ على حدّ سواء، وكل مصطلح جديد وافد إلينا يتعرّض إلى نفس المشكلة لأنّ " بعض المترجمين يقدمون على التّرجمة دون تسلح كاف بأدواتها ومطالبها، ولذلك يعمدون إلى الترجمة الحرفيّة أو التّرجمة الرّكيكة، وهذه التّرجمة - بخاصّة في نقل المفهوم والمصطلح - تمثل أضعف الوسائل الاصطلاحيّة لأنّها تحبس اللفظة في جمود عديم الفائدة. ومن نتائج التّرجمة غير الدّقيقة ، ومن نتائج التّسرّع والارتجال في وضع المصطلح أن صار المفهوم الأجنبي غامضا عند وضعه مصطلحا في العربيّة رغم أنّ دلالته قد تكون واضحة في لغته الأصليّة، وهذا ما يؤدّي إلى شيوع الإبهام والغموض"[3].

والمصطلح النّقدي الذي نحن بصدد دراسته كغيره من المصطلحات الأجنبيّة يعاني تعدّد التّرجمات، حيث ورد بلفظ : الحجاج، التحاجج، التحاجّ، المحاجّة، المحاججة. ناهيك عن المصطلحات المرتبطة به والتي تعاني التّعدّد أيضا مثل: البرهان ، الاستدلال، الحجاج ، الجدال، الاستقراء، القياس ... هذا إلى جانب مصطلحات النّظريّة الحجاجيّة التي يعجز القلم عن إحصائها كلها نحو: الرّوابط الحجاجيّة، العلاقات الحجاجيّة ، حجة الشاهد، حجة السلطة وما إلى ذلك من الاختلافات الموجودة بين النّقّاد .

وهذا التّعدّد المصطلحي يؤدّي إلى الإبهام والغموض، ويصيب الباحث بالتّيه والضّياع في اختيار المصطلح الأنسب في دراسته، وخاصّة إذا كان في بداية مشواره العلمي . وكذلك القارئ يستشكل عليه الفهم وبالتالي يعزف عن متابعة القراءة التي قد تدفع به إلى توقيف البحث .

2- استقبال الحجاج في العالم العربي :

ربّما نعزو المشكل الرّئيس لهذا المصطلح في الدّرس النّقدي العربي إلى جدّته وعدم ترجمة المصدر الأجنبي "مصنّف في الحجاج- البلاغة الجديدة-" (لبيرلمان وتتيكا)، فللآن لم يترجم هذا الكتاب كاملا إلا جزءا يسيرا منه ، ولم يظهر على السّاحة العلميّة العربيّة بَعْدُ، ولهذا فكل الاعتماد في الترجمة يرتكز على الكتب والدّراسات والمقالات والبحوث التي

تناولت الحجاج، وفي هذا الجزء من الدّراسة سأقدّم بعض التّصوّرات والمفاهيم للمصطلح الأجنبي الواردة في هذه المؤلفات، منها:

- عبد اللطيف عادل في كتابه " بلاغة الإقناع والمناظرة " الذي أطلق على مصطلح (argument) المحاجّة، حيث يقول: "وحسب هذا الفيلسوف فلا عدل دون محاجّة ، ولا محاجّة إيجابيّة أي منتجة دون تنظيم النقاش العمومي ، أي ضبط الحجج التي تحكمه "[4].

- رشيد الراضي في مقاله الموسوم بـ:"مفهوم الموضع وتطبيقاته في الحجاجيات اللسانيّة لأنسكومبر وديكرو" المنشور في مجلة عالم الفكر لسنة 2011، يذكر مصطلح الحجاجيّات اللسانيّة .

- حمّو النّقاري في الكتاب الذي قام بتنسيقه تحت عنوان (التحاجج ، طبيعته ومجالاته ووظائفه) استعمل مصطلح التّحاجج في مقابل المصطلح الأجنبي بدل الحجاج .

- شكري المبخوت في مقاله "نظرية الحجاج في اللغة، لوصف أعمال (ديكرو)" المنشور في كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، يطلق مصطلح الحجاج في اللغة، ويذكر الحجاج مرّة والمحاجّة مرّة أخرى. ويشمل هذا الكتاب إلى جانب هذا المقال ترجمة للنظريّات الغربيّة : الحجاج عند أرسطو، الحجاج: أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال مؤلف (بيرلمان وتتيكا) "مصنّف في الحجاج" ، نظريّة المساءلة عند (مايير) ، الأساليب المغالطيّة في الحجاج .

- أبو بكر العزاوي في كتابيه (اللغة والحجاج) و(الخطاب والحجاج) استعمل مصطلح الحجاج اللغوي. وقد كان الكتاب الأوّل نظريّا والثّاني تطبيقيّا .

- حافظ إسماعيل علوي في إعداده وتقديمه لكتاب "الحجاج : مفهومه ومجالاته، دراسة نظريّة وتطبيقيّة في البلاغة الجديدة" الذي طبع في خمس أجزاء ، ثم أعيد طبعه في جزأين ثبت على مصطلح الحجاج كمحاولة منه للجمع والتنسيق بين الباحثين في هذا المجال من أجل توحيد الرّؤى وتقريب وجهات النّظر، "ولعل أهم شيء نثمنه لمنسق الكتاب هو حرصه الشّديد على توحيد الاختلافات الواضحة بين الباحثين في ثبت أسماء الأعلام، وعناوين الكتب والمقالات، والتّذبذب المصطلحي الذي هو إشكال قائم داخل القطر الواحد، فكيف إذا كانت الدّراسات المقدّمة لباحثين من أقطار عربيّة متعدّدة. وعلى الرّغم من ذلك فقد بُذل جهد كبير للحدّ من هذا التّذبذب لضمان حدّ أدنى من التّناسق الذي يضمن للقارئ تتبّع محتويات الكتاب في يسر ودونما عناء"[5].

3- علاقة الحجاج بالدراسات النقدية والبلاغية الموروثة:

أحاول في هذا الجزء البحث عن إمكانيّة وجود صلة بين المصطلح الحديث" الحجاج" والمصطلحات النّقديّة الموروثة والمبثوثة في التراث البلاغي العربي؛ وليس القصد في ذلك الدّفاع عن القديم واتّخاذ البلاغة بديلا عن الحجاج ، كما أنّه لا يعني إحداث قطيعة معه بالتّشبّث بالجديد وإلغاء القديم، فالمهم في الأمر هو ربط المصطلح الجديد بمدلولاته في التراث العربي القديم بهدف فهم أكثر لتراثنا، واستفادة أفضل من الدراسات المعاصرة من أجل النّهوض بلغتنا وأدبنا .

وإذا رجعنا إلى مصطلح الحجاج نجد مجموعة من الباحثين العرب أصّلوا له في التراث العربي، منهم:

- عبد اللطيف عادل في كتابه (بلاغة الإقناع في المناظرة) الذي أفرد فيه قسما خاصّا ببلاغة الإقناع في التّراث العربي الإسلامي، مستعرضا لشروط القول المقنع عند الجاحظ، وبيان الحجّة عند ابن وهب، وبلاغة الاستدلال عند السّكاكي.

- محمد الواسطي في مقاله "أساليب الحجاج في البلاغة العربيّة" الذي عرض فيه "استقراءً لمفهوم الحجاج في بعض المصنّفات التّراثيّة، كما عرض لبعض الأساليب مثل المذهب الكلامي، وحسن التّعليل، والمبالغة، والتّشبيه الضّمني، والاستعارة. وقد استشهد بآيات من القرآن الكريم وبأبيات من الشّعر"[6].

- محمد العمري في كتابه (البلاغة العربيّة أصولها وامتداداتها)، الذي تطرّق فيه إلى مفهوم البيان عند الجاحظ، فخلص إلى أنّه "مفهوم إجرائي: أي أنّه العمليّة الموصلة إلى الفهم والإفهام في حالة اشتغالها... فالشّيء المركزي الثّابت في كتاب البيان والتّبيين هو الفهم والإفهام بالوسائل المختلفة: الوسائل اللغويّة والإشاريّة خاصّة "[7]. فالإفهام هو التّأثير والإقناع ، ووسائله هي نفسها وسائل الحجاج.

- حمادي صمود في مقاله "مقدّمة في الخلفية النّظريّة للمصطلح" ضمن كتاب (أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم) أطنب في الحديث عن البلاغة العربيّة والطّريق الذي كادت أن تسلكه لولا التوقف عند الصّورة الذي حسم أمرها ووسمها بالجمود، كما أشار إلى جهود الجاحظ في مجال الخطبة وما تضمّنته من مباحث حجاجيّة .

فهؤلاء وغيرهم أشاروا جميعا في كتاباتهم إلى وجود الجذور الأولى لهذا المصطلح في البلاغة العربيّة وخاصّة في كتابي الجاحظ (البيان والتبيين) و(الحيوان) من خلال حديثه عن الخطبة، وكذلك إسحاق بن وهب في كتابه (البرهان في وجوه البيان) الذي تحدّث فيه عن البيان وأقسامه ، والسكاكي في كتابه (مفتاح العلوم) الذي ربط فيه البلاغة بالنّحو والاستدلال .

ولتوضيح ذلك أكثر أستعرض هذه المصنّفات النّقديّة الموروثة ببعض التّفصيل؛ فالجاحظ تحدّث في كتابيه عن بلاغة الإقناع في الخطبة، ومردّ ذلك إلى منطلقه الفكري المعتزلي، الذي كان يستوجب عليه الحجّة للدّفاع عنه ولمقارعة الخصم بالدّليل القوي، ولذلك أفاض الحديث في كتابه (البيان والتبيين) خاصّة عن "الخصومة"[8] و"منازعة الرّجال ومناقلة الأكفّاء"[9] و"مناضلة الخصوم"[10] و"الاحتجاج على أرباب النّحل ومقارعة الأبطال"[11] و"مفاوضة الإخوان والخطيب مطلوب منه الإفصاح بالحجّة"[12] .

وذلك من خلال الخطبة التي كان حضورها " في الكتاب الأوّل حضورا طاغيا من جهة النّصوص التي أثبتها ومن جهة التّفكير في الخطبة وسياق الخطبة، وتوسّع في دور كل من أطراف العمليّة التّخاطبيّة: المتكلم والسّامع والنّص في جعل النّص بليغا مؤثرا مقنعا"[13] . ما جعل الدكتور محمد العمري يعدّ (البيان والتبيين) "محاولة لوضع نظريّة لبلاغة الإقناع مركزها الخطاب اللغوي والشّفوي"[14].

أمّا ابن وهب فقد تطرّق في كتابه إلى تعريف الجدل والمجادلة بقوله: "... وأمّا الجدل والمجادلة فهما قول يقصد به إقامة الحجّة فيما اختلف فيه اعتقاد المتجادلين، ويستعمل في المذاهب والدّيانات، وفي الحقوق والخصومات والتّنصّل من الاعتذارات ويدخل في الشعر والنّثر"[15]. فالجدل عنده مرادف للحجاج ما يؤكد ذلك حديثه عن أدب الجدل الذي يمكن عدّه من الإستراتيجيّات الاتّصاليّة الحجاجيّة، ومن ذلك:

- أن يبني المجادل مقدّماته ممّا يوافق الخصم عليه [16].
- ألا يقبل قولا إلا بحجّة، ولا يردّه إلا لعلة [17].
- ألا يجيب قبل فراغ السّائل من سؤاله، ولا يبادر بالجواب قبل تدبّره، واستعمال الرّويّة فيه[18].

كذلك نجد جلال الدّين السّيوطي في كتابه (الإتقان في علوم القرآن) عقد فصلا للحجاج وسمه بـ: "جدل القرآن" ذكر فيه المحاجّة والاحتجاج كمرادف للجدل ، وذلك لارتباط الحجاج بالجدل .

بالإضافة إلى حازم الذي يعد أوّل من تناول الحجاج في الشعر من خلال حديثه عن القيمة الحجاجيّة للشعر، إذ يقول: "إنّ التّخييل هو قوام المعاني الشعريّة والإقناع هو قوام المعاني الخطابيّة. واستعمال الإقناعات في الأقاويل الشعرية سائغ، إذا كان ذلك على جهة الإلماع في الموضع بعد الموضع، كما أنّ التّخاييل سائغ استعمالها في الأقاويل الخطابيّة في الموضع بعد الموضع. بل ساغ لكليهما أن يستعمل يسيرا فيما تتقوّم به الأخرى لأنّ الغرض في الصّناعتين واحد"[19].

فالشاعر يمكن أن يقنع المستمع بشعره مثل الخطيب تماما، ولعل شعر الكميت بن زيد في هاشميّاته دليل على ذلك، إذ يقر كثير من النقّاد المحدثين بأنّه أوّل من أقام الحجج في شعره، وفيه يقول الجاحظ: "ما فتح للشّيعة الحجاج إلا الكميت"[20].

وما يؤكد هذا الأمر أيضا قول المسعودي (346هـ) عن الكميت: "...ونمى قول الكميت في النزاريّة واليمانيّة فافتخرت نزار على اليمن، وافتخرت اليمن على نزار، وأدلى كل فريق بما له من مناقب، وتحزّبت النّاس وثارت العصبيّة في البدو

والحضر، فنتج بذلك أمر مروان بن محمد الجعدي وتعصّبه لقومه من نزار على اليمن، وانحراف اليمن عنه إلى الدّعوة العبّاسيّة، وتغلغل الأمر إلى انتقال الدّولة عن بني أميّة إلى بني هاشم"[21].

وممّا يدلّ على حجّيّة الشعر أيضا قول الجاحظ: "ومن قدر الشّعر وموقعه في النّفع والضّر أنّ ليلى بنت النّضر بن حارثة بن كلدة ، لما عرضت النّبي ﷺ وهو يطوف بالبيت، واستوقفته وجذبت رداءه حتى انكشف منكبه، وأنشدته شعرها بعد مقتل أبيها، فقال رسول الله ﷺ: (لو كنت سمعت شعرها هذا ما قتلته)"[22].

وقوله أيضا: "... وتزوّج شيخ من الأعراب جارية من رهطه ويطمع أن تلد له غلاما، فولدت له جارية فهجرها، وهجر منزلها وصار يأوي إلى غير بيتها، فمرّ بخبائها بعد حول وإذا هي ترقّص بنيّتها منه وهي تقول: ما لأبي حمزة لا يأتينا يظل في البيت الذي يلينا

غضبان أن لا نلد البنينا تا الله ما ذاك في أيدينا

وإنّما نأخذ ما أعطينا

فلما سمع الأبيات مرّ الشّيخ نحوهما حصرا حتى ولج عليهما الخباء، وقبّل بنيّتها وقال: ظلمتكما وربّ الكعبة "[23].

ففي الأمثلة السّالفة الذكر دليل واضح على قيام الشعر بوظيفة حجاجيّة قادرة على الإقناع والتّأثير في المتلقي إلى درجة تغييره وفق الوجهة التي رسمها الشاعر. وهذا ما جعله أرضا خصبة لتطبيقات نظريّة الحجاج عليه ، وهو ما سأعرض له لاحقا .

ويمكن القول إنّ الحديث عن الحجاج تناثرت شذراته في كتب البلاغة والفقه والأصول والفلسفة ، وقد جمعها طه عبد الرحمن في كتابه (تجديد المنهج في تقويم التراث) الذي يعدّ "كتابا غنيّا في هذا السياق التّأصيلي، حيث لا يبقى الحجاج نبتة غريبة، بل يجد له أصولا وامتدادات في المتن التّراثي الفكري والفقهي والفلسفي والأصولي والنّحوي"[24]. وذلك من خلال عرضه لنماذج كثيرة ومتنوّعة من العلماء المختلفي المشرب الذين ضمّنوا الحجاج والإقناع طيّات كتبهم أمثال (ابن رشد، ابن خلدون، الشاطبي، الغزالي...).

4- الحجاج وتطبيقاته في الخطاب النقدي العربي:

يعدّ كتاب (فنّ الإقناع) (1985) لمحمد العمري من الدّراسات الأولى التي تناولت الحجاج بشكل فنّي دقيق، حيث اقترح خطاطات ونماذج عمليّة لتحليل الخطبة تحليلا حجاجيّا . وكذلك كتاب صلاح فضل (بلاغة الخطاب وعالم النّص) (1993) الذي جاء ليعزّز النّاحية النّظريّة والتّاريخيّة والعلائقيّة لمباحث الحجاج، من خلال فتح الحدود بين البلاغة والأسلوبيّة وبين التّداوليّة والحجاج... مع اختلاف في التّسميات الاصطلاحيّة [25]. ثمّ توالت الدّراسات والكتابات العربيّة التي تتناول الحجاج بالتّطبيق، من خلال تحليل نصوص نثريّة وشعريّة منوّعة بين القديم والحديث وفق آليّاته وتقنيّاته، من ذلك :

- عبد الله صولة في كتابه (الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم مظاهره الأسلوبية) الذي مزج فيه بين الحجاج والأسلوبيّة في توافق جميل من غير تنافر، وإن كانت الغلبة للمنهج الأسلوبي على نظيره الحجاجي في طريقة عرض المادّة العلميّة .

- أبو بكر العزاوي في كتابه (الخطاب والحجاج) الذي عدّه امتدادا لكتابه (اللغة والحجاج)، قام بدراسة الحجاج في مستويات مختلفة من الخطاب (القرآن الكريم، الشعر، المثل، الصّورة الإشهاريّة) من خلال تحليل نماذج متنوّعة، وكان يهدف إلى إثبات أنّ الحجاج مرتبط " بكافة أشكال التّواصل اللغوي وغير اللغوي "[26]. لهذا اقتصرت دراسته على الجوانب الحجاجيّة الاستدلاليّة للنّصوص المراد تحليلها .

- سامية الدريدي في كتابها (دراسات في الحجاج) قامت بتطبيق نظريّة الحجاج من خلال تحليل نصوص شعريّة ونثريّة من الأدب القديم مستنبطة أساليب الحجاج وأفانين الإقناع فيه، حيث ركزت في كل نص على مسألة معيّنة وقضيّة واحدة من قضايا الحجاج على أمل أن يلملم المتلقي هذه القضايا فيكوّن صورة واضحة وجليّة عن الحجاج ومسائله.

- وفي كتابها (الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة، بنيته وأساليبه) حاولت توسيع مجال الحجاج بتطبيقه على نصوص شعريّة قديمة أنكر البعض حجاجيّتها ، هذا من جهة ومن جهة أخرى عملت جاهدة على تطوير مفهوم الحجاج ، الآلة التي تساعد المتلقي على فهم النّصوص وقد كان هذا الكتاب من أفضل تطبيقات نظريّة الحجاج على حسب اطّلاعي؛ إذ كان شاملا يجمع بين بنية الحجاج والأساليب التي ترفده والرّوابط الحجاجيّة، أي أنّها حصرت جميع الحجج والتّقنيات التي يعتمدها الشاعر لإقناع متلقيه، ثمّ قامت بتصنيفها باعتماد أكثر من مقياس، ومن ثَمّ تطبيقها على النّصوص .

فكانت دراستها جامعة بين اللغة والبلاغة والمنطق في تقسيم منسجم؛ روافد الحجاج (وسائل الإثارة والتّأثير) التي تشمل الآليات اللغويّة والبلاغيّة، ثمّ البنية الحجاجيّة والتي تشمل الحجج المنطقيّة . وهي بذلك تساعد المتلقي على فهم نظريّة الحجاج وإمكانيّة تطبيقها على نصوص مماثلة .

- طه عبد الرحمن في كتابه (اللسان والميزان) عقد بابا للحجاج بعنوان "الخطاب والحجاج"، ذكر فيه أنواع الحجج وأصنافها والسلم الحجاجي وما "يميّز عرضه هو توسيعه له مع حسن تبويبه وربطه بما لدى الأصوليين من قياس التمثيل وترتيب الأحكام الشّرعيّة . ولم يقف عند هذا الحدّ، بل ذهب إلى دراسة الاستعارة من وجهة نظر حجاجيّة مؤصّلا لها كما وردت عند عبد القادر الجرجاني "[27]. وتعدّ هذه الدّراسة نظريّة تأصيليّة أكثر من كونها تطبيقيّة.

- عبد الهادي بن ظافر الشهري في كتابه (إستراتيجيات الخطاب) عقد بابا سمّاه إستراتيجيّة الإقناع استعرض فيه أصناف الحجاج وتقنيات الحجاج التي شملت الأدوات اللغويّة والآليّات البلاغيّة والسلم الحجاجي مع إدراج مثال في كل مرّة للتّوضيح والفهم . فهذه الدّراسة لم تكن تطبيقا بقدر ما كانت توضيحا لآليّات الحجاج .

- عبد اللطيف عادل في كتابه (بلاغة الإقناع في المناظرة) خصّص الجزء الأخير منه لتطبيق الحجاج في المناظرة تحت عنوان "الآليّات الإقناعيّة أو الاشتغال الحجاجي في المناظرة" . استعرض فيه الضّمائر وأدوار الكلام بين المتكلمين وطريقة تنظيمها، وأفعال الكلام، إلى جانب تقنيات توسيع الحوار أو إغلاقه التي ركز فيها على الاستفهام والنّفي.

فاقتصرت دراسته على آليّات حجاجيّة معيّنة لم تتعدّاها، وذلك راجع لخصوصيّة النّصوص، لأنّ كل نصّ يفرض تحليلا يتناسب معه .

- أمينة الدّهري في كتابها (الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة) تناولت نصوصا منوّعة المحتوى مابين أدبي وفلسفي وسياسي، ومتباينة من حيث الزّمن، ومختلفة الرّؤى لاختلاف أصحابها من حيث المرجعيّة الفكريّة، فضمّ الكتاب بين دفّتيه خطابات للجاحظ ولابن عبّاد، ولابن حزم ولمختار السّوسي. ولم يمثل هذا الكتاب تطبيقا للحجاج، بل كان يبحث في حجاجيّة هته النّصوص، ويسعى إلى إثباتها. وما يؤكد ذلك قولها: " إنّها الوجهة التي يولي هذا الكتاب شطره بحثا في (حجاجيّة)، قضت كل من البلاغتين الكلاسيكيّة والجديدة بملازمتها لأغلب أنماط الخطاب وبذهابها إلى أبعد من اللغة دون تجاوزها"[28] .

- محمد العبد في مقاله "النّص الحجاجي العربي، دراسة في وسائل الإقناع" ضمن كتاب (الحجاج مفهومه ومجالاته) الجزء الثاني، تناول سبعة عشر نصّا حجاجيّا بالتّحليل؛ خمسة نصوص قديمة والأخرى من العصر الحديث، وكانت موضوعاتها متنوّعة (اجتماعيّة، دينيّة، فكريّة، أدبيّة، سياسيّة) وأصحابها مختلفين من حيث الثّقافة والمنطلق الفكري.

وقد زاوجت دراسته بين الوسائل المنطقيّة (القياس بأنواعه)، والوسائل اللغويّة (التكرار والتوازي والازدواج) مستكشفا إيّاها في النّصوص المدروسة ومبيّنا دورها في الإقناع والتّأثير، حسب كل نص وما يتوافر فيه من وسائل الحجاج، فقد تتعدّد الوسائل في نص واحد، وقد يكتفي بواحدة فقط .

وهذه الدّراسة جديرة بالاهتمام لأنّها واضحة وسهلة، تيسّر تطبيق نظريّة الحجاج على النّصوص العربيّة، وهي تقترب من دراسة سامية الدريدي إلا أنّ هذه الأخيرة توسّعت في الآليّات المنطقيّة وزادت الآليّات البلاغيّة التي لم يتطرّق إليها محمد العبد في دراسته .

وفي الأخير يمكن القول إنّ الحجاج حقيقة حواريّة تفاعليّة بين المتكلمين، تمنح أقطاب عمليّة التّواصل القدرة على الإقناع والتّأثير بوسائل وأساليب علميّة راقية تتوسّل الخطاب اللغوي وغير اللغوي. فهو فضاء واسع يسمح بتقبّل الآخر ومحاججته بالدّليل والحجّة، ويقرّ بالاختلاف في الأفكار والمعتقدات والسّلوك، ويرفض الإلغاء والإقصاء، والإرغام مهما كان السّياق أو المقام.

الحجاج – كمصطلح أو نظريّة أو منهج – فرض وجوده وأصبح من الضّروري التّعامل به لأهمّيّته، وفي ذلك يقول أبو الوليد الباجي: "وهذا العلم من أرفع العلوم قدرا وأعظمها شأنا لأنّه السّبيل إلى معرفة الاستدلال وتمييز الحقّ من المحال. ولولا تصحيح الوضع في الجدل لما قامت حجّة ولا اتّضحت محجّة ولا عُلم الصّحيح من السّقيم ولا المعوجّ من المستقيم"[29].

ولهذا نجده في كل الخطابات (السياسية، الاجتماعيّة، الدّينيّة، الأدبيّة)، حتى العاديّة والمتداولة بين النّاس، بل يتعدّى الخطاب اللغوي إلى غيره غير اللغوي (الإشهاري...) . إنّه لا يُعنى بالنّص لذاته ولا يركز على جماليّته ولكنّه يتوسّل به ليكشف سبل التّأثير والإقناع ومن ثَمّة التغيير. منطلقا من سؤال مفاده: كيف أمكن لهذا الخطاب من تغيير

المجتمعات من فكر إلى آخر، أو من دين إلى آخر؟ وكيف نستفيد من ذلك في عصرنا الرّاهن الذي لا يؤمن بالتّعدّد والاختلاف ؟

وعليه فلابدّ من الإلمام بهذه النّظريّة وأدواتها الإجرائيّة لأنّها تساعد النّاقد على أداء مهمّته على أكمل وجه، وتجعل من العمليّة النّقديّة وسيلة فعّالة لمسايرة حركيّة الواقع العربي بكل تجليّاته وغير معزولة عنه، بل مساهمة في تغييره وتطويره من خلال فتق آفاق التّحاور والتّواصل بين الأطراف المختلفين .

الإحالات والهوامش :

[1] صلاح رزق، أزمة المنهج في الدراسات النقديّة الحديثة والمعاصرة، مجلة علامات، المغرب ، م 13، ج 51 ، محرم 1425هـ، مارس 2004 ، ص 74

[2] صابر الحباشة، من إشكاليات تطبيق المنهج الحجاجي على النصوص "حجاجية المفردة القرآنية نموذجا" ، ضمن كتاب الحجاج مفهمه ومجالاته، دراسات نظرية وتطبيقية محكمة في الخطابة الجديدة، مجموعة من المؤلفين، إشراف: حافظ إسماعيل علوي، دار الروافد الثقافية، بيروت، ابن النديم للنشر، الجزائر، ط1 ، 2013 ، ج2 ، ص 853 .

[3] خليل عودة ، المصطلح النقدي في الدراسات العربية المعاصرة بين الأصالة والتجديد ، الأسلوبية أنموذجا، مجلة جامعة الخليل للبحوث، فلسطين، م 1 ، ع 2 ، 2003 ، ص 48 ، 49 .

[4] عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع والمناظرة، منشورات ضفاف، لبنان، منشورات الاختلاف ، الجزائر، ط1 ، 2013 ، ص 84 .

[5] عبد النّبي ذاكر، الحجاج: مفهومه ومجالاته، دراسة نظريّة وتطبيقيّة في البلاغة الجديدة، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، م40 ، ع2 ، أكتوبر، ديسمبر، 2011 ، ص 10 .

[6] عبد الهادي بن ظافر الشهري، إستراتيجيّات الخطاب ، مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1 ، 2004 ، ص 451 .

[7] محمد العمري ، البلاغة العربية، أصولها وامتداداتها ،أفريقيا للشرق ، الدار البيضاء، المغرب ، ط1، 1986، ص 191 .

[8] الجاحظ، البيان والتّبيين، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، دار الحبيب، بيروت ،د.ط ، د.ت، ج1 ، ص 08 .

[9] المرجع نفسه ، ص 12 .

[10] المرجع نفسه ، ص 91 .

[11] المرجع نفسه ، ص 14 .

[12] المرجع نفسه ، ص 07 .

[13] حمادي صمود، مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح ، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج من أرسطو إلى اليوم، إشراف: حمادي صمود ، كلية الآداب منوبة ، تونس ، د.ط ، د. ت ، ص 23 .

[14] محمد العمري ، المقام الخطابي والمقام الشعري في الدرس البلاغي ، مجلة دراسات سيميائية أدبية لسانية، ع 5 ، خريف شتاء 1991 ، ص 11 .

[15] ابن وهب ، البرهان في وجوه البيان، تح : أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، ساعدت جامعة بغداد على نشره ، بغداد ، ط1 ، 1967 ، ص222.

[16] المرجع نفسه ، ص 224 .

[17] المرجع نفسه ، ص 237 .

[18] المرجع نفسه ، ص 240 .

[19] حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الكتب الشرقية، تونس ، د.ط ، 1966 ، ص 361 .

[20] أوردها السيوطي في كتابه شرح شواهد المغني، منشورات مكتبة الحياة، لبنان. نفلا عن: سامية الدريدي ، الحجاج في الشعر القديم من الجاهلية إلى القرن الثالث الهجري، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2007 ، ص 03 .

[21] المسعودي، مروج الذّهب ومعادن الجوهر، تنقيح وتصحبح: شارل يلا، طبعة بيروت، 1993 ، ج 4 ، ص 70 .

[22] الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج1 ، ص 43 ،44 .

[23] المرجع نفسه ، ص 47 ، 48 .

[24] صابر الحباشة، من إشكاليات تطبيق المنهج الحجاجي على النصوص ، ص 847 .

[25] ينظر: المرجع نفسه ، ص 847 .

[26] أبو بكر العزاوي، الخطاب والحجاج ، الأحمديّة للنشر، المغرب ، د.ط ، د.ت ، ص 10 .

[27] عبد الهادي بن ظافر الشهري ، إستراتيجيّات الخطاب ، ص 451 .

[28] أمينة الدّهري، الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة ، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2011، التّصدير .

[29] أبو الوليد الباجي، المنهاج في ترتيب الحجاج، تح: عبد المجيد التّركي، دار الغرب الإسلامي، ط 2، 1987 ،ص 08 .